

هشام شرابي مفكراً

عبد السلام أحمد عابد*

مقدمة:

تناولت في هذا البحث المتواضع المفكّر الدّكتور هشام شرابي⁽¹⁾، باعتباره واحداً من أبرز المفكّرين والمثقّفين الفلسطينيين المعروفيين عالمياً، وبدأت أولاً بالحديث عن ميلاده وطفولته، بشكل عامٍ عن هذه الكتب التي لاقت انتشاراً واسعاً، ثم سلطت الأضواء على سيرتيه الّذاتيّتين: الجمر والرماد.. ذكريات مثقّف عربي، وصور الماضي، وهم آخر كتابين أَفهما شرابي، وقد ضمّنّهما ذكرياته وتجاربه أثناء مسيرته الحياتيّة والتّعلميّة في فلسطين، وبيروت، وأمريكا منذ طفولته حتّى كهولته. أملاً أن أكون قد وفّقت في تقديم جزء من الواجب تجاه هذا المفكّر الكبير الذي أحبّ وطنه العربي وأمّته العربيّة والإنسانية جمّعاً.

السيرة الذاتية:

يعتبر المفكّر الدّكتور هشام شرابي واحداً من أبرز المثقّفين الفلسطينيين، حيث ولد في يافا سنة 1927م ودرس الفلسفة، في الجامعة الأمريكية في بيروت سنة 1947م، ثمّ حصل على الماجستير من جامعة شيكاغو سنة 1948م، وحصل على شهادة الدّكتوراه عام 1953م، في تاريخ الثقافة، من الجامعة ذاتها. وعمل في التعليم الجامعي، ومنذ عام 1963م، أصبح أستاذاً في جامعة جورج تاون⁽²⁾

* باحث وكاتب - جنين - فلسطين.

¹ 1927-2005م.

² الجيوسي، د. سلمى الخضراء، موسوعة الأدب الفلسطيني المعاصر 2 النّثر، المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر، بيروت، 1997 م ص 378.

عاش طفولته بين يافا وعكا في دار جده، درس المرحلة الابتدائية في مدرسة (الفرنندز) في رام الله. بدأ رحلته مع العمل السياسي بالانضمام إلى جمعية سرية، في فترة مبكرة من عمره، وكان هدف هذه الجمعية تحرير الوطن العربي وتوحيده، وأصبحت فيما بعد نواة من قوى حركة القوميين العرب.

أثناء وجوده في بيروت، خلال الأربعينات، انضم إلى الحزب السوري القومي الاجتماعي، حيث كان رفيقاً لأنطون سعادة. كان شرابي مسؤولاً عن فرع الحزب في أمريكا، وحدثت النكبة عام 1948 أثناء وجوده هناك. عاد شرابي إلى بيروت، وأصبح محرراً لمجلة الحزب الشهرية (الجيل الجديد).

سافر شرابي إلى الولايات المتحدة ثانية، بعد إعدام أنطون سعادة في بيروت، وبقي متسعاً إلى الحزب حتى عام 1955م، إثر اغتيال عدنان المالكي في 22/4/1955م.

عمل أستاداً لتاريخ الفكر الأوروبي الحديث في جامعة جورج تاون في واشنطن، ونشر مؤلفاته الجامعية باللغة الإنجليزية. عام 1970م عمل أستاداً جامعياً في الجامعة الأمريكية، وفي مركز التخطيط الفلسطيني، وعمل محرراً لمجلة الدراسات الفلسطينية الصادرة عن معهد الدراسات الفلسطينية، وترك بيروت؛ بسبب أحداث الحرب الأهلية في لبنان.

زار مدینته يافا مع توقيع اتفاقية أوسلو، وكان متھمّاً لهذا الاتفاق، ثم أصبح من المعارضين له. ومن المؤسسات التي ساهم شرابي في إنشائها: مركز الدراسات العربية المعاصرة في جامعة جورج تاون، ومركز التحليلات السياسية حول فلسطين في واشنطن، وصندوق القدس الذي كان رئيساً لمجلس إدارته، وقدّم منحاً للطلبة الفلسطينيين، وقروضاً لهم، وساهم في إنشاء روضات للأطفال، وتزويد المدارس بأجهزة حاسوب ومراجع، إضافة إلى تأسيس النّوادي الثقافية والرياضية في الجليل

والملثُث. واستقرَّ هشام شرابي في بيروت عام 1998م، وفي 13/1/2005م، انتقلت روحه إلى بارئها؛ نتيجة إصابته بمرض السرطان⁽¹⁾.

ويقول هشام شرابي عن هجرته إلى أمريكا، وهو في العشرين من عمره: (لم تكن الهجرة هدفي. أكاد لا أصدق الآن أنّي لم أقض فوق أرض وطني سوى عشرين عاماً من حياتي. لو بقيت هناك، لكونت أغلب الظن دخلت السجن أو قتلت أو في أحسن الأحوال أبعدت عنه بعد عذاب طويل، كما حدث للعديد من أبناء جيلي المثقفين). سنة 1947م غادرت البلاد، لكنّي فعلّياً لم أهاجر. الهجرة تعني الاقتلاع وبدء حياة جديدة. إلاّ أنّي لم أقتلاع من وطني، ولم أبدأ حياة جديدة. بقيت جذوري مغروسة في أرض كنت بعيداً عنها.

ترى ما الأثر الذي تركه الحزب القومي السوري الاجتماعي على شخصية الدكتور شرابي؟. يجيب بنفسه في مذكراته، ويكتب: (تجسّد الأثر في المثالية التي زرعتها في نفسي الرؤية القومية الاجتماعية، فاتّجهت حياتي نحو العمل القومي والاجتماعي. لم يخطر ببالي يوماً أن أكرّس حياتي للربح الخاص، أو أضع مصلحتي الشخصية هدفاً أعلى في الحياة⁽²⁾).

¹ أبو نضال، نزيه، القلقيلي، عبد الفتاح، الكاشف معجم كتاب وأدباء فلسطين، المجلس الأعلى للثّرية والثّقافة، منظمة التحرير الفلسطينية، رام الله، 2011م ص 156-157..

² ن.م، ذ.ي ص 156 - 157

مؤلفاته المنشورة:

ألف الدكتور هشام شرابي ما يزيد على عشرين مؤلّفاً وهي: **الشرق الأوسط (باللغة الإنجليزية)** عام 1957م، **حكومات وسياسات الشرق الأوسط في القرن العشرين (بالإنجليزية)** 1962م، **الثورة والقومية في العالم العربي (بالإنجليزية)** 1966م، **المأزق المميت، فلسطين وإسرائيل (بالإنجليزية)** 1969م، **فلسطين والمقاومة (بالإنجليزية)** 1970م، **الفدائيون الفلسطينيون: صدقهم وفاعليتهم، مؤسسة الدراسات الفلسطينية** بيروت 1970م، **المقاومة الفلسطينية في وجه إسرائيل وأمريكا**، 1970م، **المثقفون العرب والغرب (بالإنجليزية)** 1970م وترجم إلى العربية عام 1971م وعام 1991م، **الدبلوماسية والاستراتيجية في وجه الصراع العربي الصهيوني** بيروت 1991م، **مقدّمات لدراسة المجتمع العربي**، دار الطليعة، بيروت 1975م وعام 1991م وعام 1999م، **الجمر والرماد، ذكريات مثقف عربي (سيرة)** دار الطليعة بيروت 1978م، **البنية البطيركية** 1986م، صالح برانسي: **التّضال الصّامت**، ثلاثة وثلاثون سنة تحت الاحتلال الصهيوني (تاريخ شهيّ أجراه هشام شرابي مع صالح برانسي) دار الطليعة بيروت 1981م، **عطر يافا: مجلد كبير للأطفال**. **النّظام الأبوّي وإشكاليّة تخلُّف المجتمع العربي (بالإنجليزية)** 1988م و ط.2. مركز دراسات الوحدة العربية بيروت، 1992م، ط.3. 1993م، **المؤسسة العربية**. بيروت، 2000م، **التّقدّم الحضاري للمجتمع العربي في نهاية القرن العشرين**، مركز دراسات الوحدة العربية، 1991م، **الرحلة الأخيرة وصور الماضي (سيرته الثانية)** 1993م، **نصوص ومقالات في القضية الفلسطينية، المؤسسة العربية**، بيروت 2000م، **أزمة المثقفين العرب**، دار نلسن، بيروت 2002م، **الوعي والتّغيير، التّربية والتّثقيف الاجتماعي**.⁽¹⁾

¹ مصدر سابق، الكاشف معجم كُتاب وأدباء فلسطين ن. ي ص 156 - 157.

إضاءة على بعض الكتب المنشورة للدكتور شرابي:

يقع كتاب (النظام الأبوي وإشكاليّة تخلّف المجتمع العربي) في مئة واثنتين وثمانين صفحة من القطع الكبير، وقد ترجمه إلى العربية محمود شريح، ويشتمل الكتاب على عشرة فصول وهي: الأبوية المستحدثة: التّصوّر والواقع، والأبوية والحداثة، والتّشّغل الاجتماعي للأبوية المستحدثة، وبنية الأبوية وعلاقتها الاجتماعية، والجذور الاجتماعية التّاريخيّة للأبوية المستحدثة، والأبوية المستحدثة في عصر الإمبرياليّة، وخطاب الأبوية المستحدثة، والنّقد الجذري للثقافة الأبوية المستحدثة، وهيمنة البرجوازية الصّغيرة، أمّا الفصل العاشر فكان تحت عنوان: ما العمل؟.

في مقدّمه لهذا الكتاب، الذي انتهى من تأليفه، قبل انطلاق الانتفاضة الفلسطينيّة، وبدء التّحول الديمقراطي في أوروبا الشرقيّة والاتحاد السّوفييتي، يوضح شرابي أنَّ الجديد في هذا النّمط هو تقلُّص دور العقائد والأيديولوجيات الكلية الشّاملة، وانتشار التّعدديّة السياسيّة وانبعاث الحركات الشّعبية المطالبة بالحرّيات الديمقراطية، وحقوق الإنسان، والعدالة الاجتماعيّة.

ويهدف كتاب النّظام الأبوي... إلى الكشف عن أسباب التّخلّف العربي، وكيفيّة تجاوز هذا التّخلّف والتّغلّب عليه. وشرابي يرى أنَّ هذا التّخلّف يتّخذ أشكالاً عدّة تتميّز عن بعضها بصفتين مترابطتين: اللّا عقلانيّة والعجز. اللّا عقلانيّة في التّدبير والممارسة، والعجز عن التّوصل إلى الأهداف التي نرزو إليها. واللّا عقلانيّة في التّحليل والتّنظير والتّنظيم، والعجز عن الوقوف في وجه التّحدّيات، والتّغلّب عليها. إنَّ التّخلّف المتمثّل في شلل المجتمع العربي ككل: في تراجعاته المستمرة، وفي انكساراته المتكرّرة، وفي انهياره الدّاخلي. إنَّ مصير مجتمعنا يتوقّف على مقدراته في التّغلّب على نظامه الأبوي (الأبوي المستحدث) واستبداله بمجتمع حديث. ويوضح شرابي أنَّ

النِّظام القائم في المجتمع العربي ليس نظاماً تقليدياً بالمعنى التُّراثيِّ، كما أنه ليس معاصرًا بالمعنى الحداثويِّ، بل هو خليط غير متمازج من القديم والحديث، من التُّراثيِّ والمعاصر.

ويرى الدكتور هشام شرابي في دراسته عن النِّظام الأبويِّ وإشكاليَّة تخلُّف المجتمع العربيِّ، أنَّ الْدِّهْنِيَّة الأبويَّة تتمثلُ في نزعتها السُّلْطُوَيَّة الشَّامِلَة الَّتِي ترفض النَّقْد، ولا تقبل بالحوار إلَّا أسلوبًا لفرض رأيَها فرضاً. إنَّها ذهنيَّة امتلاك الحقيقة الواحدة الَّتِي لا تعرف الشَّكَّ، ولا تُقرُّ بِامْكَانِيَّة إعادة النَّظر. ولهذا فإنَّ الْدِّهْنِيَّة الأبويَّة والأبويَّة المستحدثة، علمانيَّة كانت أو دينيَّة، لا تستطيع تغيير موقفها؛ لأنَّها لا تعرف، ولا ت يريد أن تعرف إلَّا حقيقتها، لا ت يريد إلَّا فرضها على الآخرين، بالعنف والجبر إن لزم الأمر.

وللخروج من حالة الفوضى الَّتِي نعيش فيها، يقرِّر شرابي أنَّنا نحتاج إلى رؤية بعيدة المدى، وإلى نوع من الممارسة الجماعيَّة الَّتِي لا تنتهي بانتهاء حياتنا كأفراد. هذا التَّغيير يتَّخذ الزَّمن إطاراً له، ويستمرُّ في مراحل تراكم فيها نتائج الأعمال الَّتِي نقوم بها أفراداً وجماعات، إلى أن تتحوَّل الكمية إلى نوعية فيصبح التَّغيير جذريًّا شاملاً.⁽¹⁾

أصدر الدكتور شرابي كتابه (المثقفون العرب والغرب) عام 1971م باللغة الإنجليزية، فيما صدرت الطبعة الثانية منه باللغة العربيَّة عام 1978م، عن دار المَهَار للنشر في بيروت. تضمنَ هذا الكتاب ثمانية فصول، تحدَّث في الفصل الأول عن انبثاق طبقة المثقفين العرب، وفي الثاني عن الأسس النَّظرية للنَّزعة الإصلاحية في الإسلام، وفي الثالث عن أيديولوجية الإصلاح الإسلامي، وتناول في الفصل الرابع البنية الاجتماعيَّة والفكريَّة للمثقفين المسيحيَّين، وفي الخامس الأيديولوجية

¹ شرابي، د. هشام، النِّظام الأبويِّ وإشكاليَّة تخلُّف المجتمع العربي، وزارة الثقافة، عُمان – الأردن، 2009م، من ص 7 - 17.

الاجتماعية لديهم، وفي السادس تحدث عن بروز العلمانيين المسلمين، وخصص الفصلين السابع والثامن للحديث عن المثقفين العرب والعمل السياسي، وعلاقتهم بالغرب.

وركّزت هذه الدراسة على المرحلة الأولى التي بدأت في أواخر القرن التاسع عشر حتّى أوائل القرن العشرين (1875 - 1914م)، وتمتدّ المرحلة الثانية بين الحربين، وتميزت بسيطرة الغرب المباشرة على العالم العربي، وتنتمي مع بداية الثورة العربية ضدّ الغرب، فيما تبدأ المرحلة الثالثة من نهاية الحرب العالمية الثانية، متضمّنة تحرّر العالم العربي سياسياً من الغرب، ورفضه للقيم الغربية وثقافتها. وحاول شرابي كما يشير في المقدمة تحليل التّغيير من وجهة التاريخ الفكري، فنظر إلى مثقّفي هذه المرحلة، عبر أدوارهم، كمعلّقين على تجربة جيلهم وكمفسّرين لها، وليس من خلال أعمالهم.⁽¹⁾

كتاب (مقدّمات لدراسة المجتمع العربي) للدّكتور هشام شرابي لاقى إقبالاً كبيراً في أنحاء الوطن العربي كافّة. وهو حصيلة محاضرات ألقاها في جامعة جورج تاون في العام الـ 1973م . 1974م، بحضور طلبة ماجستير ودكتوراه عرب وأمريكيّين. يقع هذا الكتاب في مئة وثلاث وخمسين صفحة من القطع المتوسط، وخصص شرابي لشرح بنية العائلة في المجتمع العربي، والحديث عن بعض المظاهر السّلبيّة كالاتّكالية، والعجز والهرب، وأكّد أهميّة الوعي والتّغيير، والتّحدّي الحضاري للإنسان

¹ شرابي، د. هشام، *المثقفون العرب والغرب عصر المّهضة*. الطبعة الثانية، دار المّهار للنشر، بيروت، 1978م، ص 13 - 405.

العربي، وخصص فصلين لمناقشة دور المثقف العربي والمستقبل، والثقافـيف الاجتماعي والتلفزيون.⁽¹⁾

يقول شرابي: عندما نفيق من ذهولنا، ندرك أن الكوارث تؤدي أحياناً إلى اليأس، وأحياناً إلى ترسـيخ إرادة الصـراع. كان هذا أول درس أتعلـمه من الجدلـية التـاريخـية. شـدة الصـدمة قـوـتـ فيـنا الـوعـيـ وأـخـذـتـ تـعمـقـهـ يـوـمـاـ بـعـدـ يـوـمـ. منـ هـنـاـ كـانـتـ ثـورـيـةـ انـكـسـارـ سـنـةـ 1967ـ مـ:ـ أـنـ نـسـتـسـلـمـ لـلـيـأـسـ أـمـرـ كـانـ يـسـاـوـيـ الـاسـتـسـلـامـ لـلـعـدـوـ،ـ يـسـاـوـيـ الـعـودـةـ إـلـىـ حـالـةـ مـاـ قـبـلـ الـوعـيـ.ـ بـعـدـ حـزـيرـانـ،ـ مـرـتـ الـأـيـامـ حـزـينـةـ،ـ مـرـةـ لـكـنـ الـأـمـورـ بـدـأـتـ تـتـغـيـرـ.ـ بـالـتـيـسـبـةـ لـشـرابـيـ،ـ يـضـيـفـ:ـ شـعـرـتـ كـانـيـ كـنـتـ فيـ غـرـفـةـ مـظـلـمـةـ،ـ ثـمـ روـيـداـ روـيـداـ بـدـأـتـ الـظـلـمـةـ تـنـقـشـ.ـ أـخـذـنـيـ الـوعـيـ الـجـدـيدـ بـشـكـلـ مـفـاجـيـ،ـ وـفـيـماـ بـعـدـ،ـ أـخـذـ يـتـعـمـقـ،ـ بـالـقـرـاءـةـ،ـ بـالـتـجـرـبـةـ،ـ بـالـتـفـكـيرـ.ـ وـبـعـدـ تـجـارـبـ عـدـيدـةـ أـدـرـكـ شـرابـيـ أـنـ الـخـطـوـةـ الـأـوـلـىـ فـيـ التـحـرـرـ تـكـمـنـ فـيـ التـحـرـرـ الـذـاتـيـ،ـ وـأـنـ بـدـاـيـةـ التـحـرـرـ تـكـمـنـ فـيـ التـخـلـصـ مـنـ عـبـودـيـةـ الـفـكـرـ الـمـسـيـطـرـ،ـ وـيـضـيـفـ:ـ (ـلـكـنـ سـرـعـانـ مـاـ اـكـتـشـفـتـ أـنـ تـحـقـيقـ هـذـهـ الـخـطـوـةـ لـيـسـ أـمـرـ سـهـلـاـ،ـ وـإـنـمـاـ هـوـ فـيـ غـاـيـةـ الـصـعـوبـةـ.ـ إـذـ إـنـ التـحـرـرـ الـذـهـنـيـ يـتـطـلـبـ عـمـلـيـةـ غـسـلـ دـمـاغـ جـذـرـيـةـ وـطـوـلـيـةـ الـمـدـيـ،ـ وـإـعادـةـ نـظـرـ فـيـ جـمـيعـ رـكـائزـ الـفـكـرـ الـمـورـوـثـةـ،ـ وـالـمـسـتـمـدـةـ مـنـ التـقـاـفـةـ الـمـهـيـمـةـ،ـ وـإـخـضـاعـ هـذـاـ الـفـكـرـ لـنـقـدـ مـسـتـمـرـ وـشـامـلـ).ـ

وعن المجتمع الغربي، يقول شرابي من وحي تجاربه: إن المجتمع الغربي هو أول مجتمع في التاريخ، يستطيع بفضل تقدمه العلمي والصناعي، أن يوفر لأفراده الأسس المادـيةـ لـبـنـاءـ حـيـاةـ إـنـسـانـيـةـ حـقـقـةـ.ـ وـلـكـنـ بـدـلـاـ مـنـ أـنـ يـحـقـقـ ذـلـكـ،ـ خـلـقـ نـظـامـاـ اـجـتمـاعـيـاـ اـقـتصـادـيـاـ،ـ لـاـ يـزالـ يـرـتكـزـ عـلـىـ اـسـتـغـالـ إـلـيـانـ،ـ وـعـلـىـ قـهـرـهـ وـكـبـتـهـ.ـ إـنـ الـغـرـبـ الـحـدـيثـ

¹ شرابي، د. هشام، مقدمة لدراسة المجتمع العربي، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت 1977م، ص 17.15

قائم على العنف والاستغلال، وهو مرض بالدماء، وإذا قسناه بمقدار القتل والدمار الذي سببه في عصرنا، لوجدناه أكثر وحشية وأشدّ همجيّة، من أيّ مجتمع في التاريخ. وبصيغة شرابي: إنَّ الإنسان في هذه الحضارة، لا يكون القيمة الأساسية، أو الهدف الأخير للمجتمع، كما تقول نظرياته ومثله الأخلاقية. إنَّه أداة للنمو الاقتصادي الأعمى، والتوسيع الاستهلاكي من دون نهاية، ولا يشكِّل غاية إنسانية في حد ذاته، إلَّا في أوقات الوعظ في الكنائس، والمناسبات الخطابيَّة.

ويُقرُّ شرابي أنَّ مقدرة العرب على مواجهة التَّحدِي الحضاري تتوُّقف على أمرين: أولاً. على فهم صحيح لحقيقة الغرب وما نريده منه. وثانياً. على القدرة على تجاوز نظرية التَّحدِيث، ونظرية التَّقليد في مواجهتنا للغرب، والسير في طريق حضاريٍّ مستقلٍّ. وبصيغة: فقط بالعودة إلى أنفسنا، وبالاعتماد على قوانا وإدراكتنا وإرادتنا المستقلة، نستطيع أن نبني مجتمعاً، وحضارة جديدة، كما نريدهما نحن، لا كما يتصوَّرُهما أو يريدهما غيرنا. والعودة الحقة إلى النَّفس لا تكون إلَّا بتحرير النَّفس. وما تحرير الطِّفل وتحرير المرأة إلَّا الشَّرْط الأوَّل والأساسي لتحرير الإنسان في المجتمع العربي، وبالتالي تحرير المجتمع بكماله. إنَّنا بحاجة لبناء حضارة يكون هدفها تلبية حاجة الإنسان لا حاجة الآلة أو صاحبها، حضارة قادرة على دخول التاريخ، والإسهام في تقديم الإنسانية⁽¹⁾.

ويرى الدكتور شرابي أنَّ المثقَّف ليس من أحسن القراءة والكتابة، أو من حصل على شهادة علميَّة، بل إنَّ صفتين أساسيتين هما اللَّتان تميِّزانه وهما: الوعي الاجتماعي الذي يمكن الفرد من رؤية المجتمع وقضاياها من زاوية شاملة، ومن تحليل هذه القضايا على مستوى نظريٍّ متماسك. والدور الاجتماعيُّ الذي يمكن وعيه الاجتماعي

¹ المصدر السابق ص 98 - 99.

من أن يلعبه، بالإضافة إلى القدرات الخاصة التي يتصفها عليه اختصاصه المهني أو كفایاته الفكرية. وهناك أربع فئات من المثقفين: الفئة الأولى تتتألف من المثقفين الملزمين الذين يتطابق عندهم التفكير مع الممارسة، بحيث لا يمكن التفريق بين حياتهم الخاصة وحياتهم العامة. هؤلاء يقدّمون حياتهم إلى قضية أو إلى هدف اجتماعي، فيصبح مصيرهم ومصير قضيّتهم مصيرًا واحدًا، وهذا أعلى أنواع الالتزام. وينبع هؤلاء المثقفون من خلفيات وطبقات اجتماعية مختلفة، ولا يجمعهم اختصاص أو مهنة معينة، بل وعي واحد، وممارسة واحدة، فتجد الطبيب إلى جانب الطالب والأستاذ والعامل والفالح.

وتتألف الفئة الثانية من المثقفين من أهل القلم... من الأدباء والكتّاب والمفكّرين العاملين اجتماعيًّا بالكلمة لا بالممارسة المباشرة. وهذا التأثير لا يظهر إلا في المدى الطوّيل. والفئة الثالثة تتتألف من العاملين في حقل التّوثيق والتّعلّيم من المعلّمين، وتأثيرهم في العمل الاجتماعي هو نتيجة عملية التعليم المباشر التي يمارسونها. أمّا الفئة الرابعة، فتتألف من المهنيين أي من الأخصائين العاملين في الحقول العلميّة والصناعيّة والإداريّة المختلفة.

وهذه الفئة هي الأكثر بعدها عن الوعي الأيديولوجي والسياسي. وتأثيرها في المجتمع ينبع من ممارستها المهنية، ونتائج عملها في حقول اختصاصها.⁽¹⁾

والمثقفون يمثلون القوّة الذاتيّة الوحيدة في المجتمع العربي المعاصر التي تملك الوعي والقدرة على تحقيق هذه المهمة التاريخيّة. إنّهم في قدراتهم العقلية والتّقنيّة والعلميّة، يمثلون قوّة المجتمع، وطاقته الإنسانيّة، وفي وعيهم يعبّرون عن إرادة هذا المجتمع وأهدافه. إنّ دورهم دور لا يقوى الخبراء أو الأخصائين الأجانب على تأديته،

¹ المصدر السابق، مقدّمات لدراسة المجتمع العربي، ص 100 - 102.

وإذا أعطى الأجنبيُّ هذا الدور فمعنى ذلك أنَّنا فقدنا زمام التَّارِيخ، ورضخنا لإرادة خارجة عن إرادتنا. والمثقفون اليوم أمامهم خياران: إِمَّا الاستسلام للقوى والمؤسسات المهيمنة، والقبول بدور المستخدم، إِمَّا لعب الدَّور التَّارِيُّخِي، ورفض مذلة الاستخدام والاستسلام، والوقوف إلى جانب جماهير الشَّعب الَّتي يتوقفُ عليها، في السِّيَاق الطَّوِيل مصير المجتمع ومستقبله.⁽¹⁾

السِّيَرة الذَّاتِيَّة: الجمر والرَّماد:

كتاب الجمر والرَّماد.. ذكريات مثقفٍ عَرَبِيٍّ يقع في مئتين وتسعمائة وثلاثين صفحة، بدأ شرابي بكتابته صيف عام 1975م؛ ليُسجِّل فيه نهاية مرحلة من حياته، ظُلِّمَها انتهت، وببداية مرحلة جديدة ظُلِّمَها بدأت، إِلَّا أنَّ المرحلة الجديدة لم تتحقق، والمرحلة السابقة استمرَّت. وغمره إحساسُ أنَّ الفرصة قد فاتته، وأنَّه لن يعود إلى وطنه، بل سيمضي ما تبقيَ له من العمر في بلاد الغربة، وأنَّه سيموت فيها. لكنَّه يكتب في مذَكَّراته: لكن... لا.. هذا لن يحدث. شعبي هو جزءٌ من حياتي، لم أتركه يوماً، ووطني أحمله في قلبي، لا أقدر أن أتخلى عنه، سأعود يوماً.

هذا الكتاب ينتمي إلى فنِ السِّيَرة الذَّاتِيَّة. حيث يكتب شرابي بصدق وحميمية عن الأحداث والمشاهد والأماكن الَّتي مرَّ بها، وكانت له ذكريات معها. يبدأ السُّطور الأولى من الكتاب بوصف مطار اللَّد، يوم سفره إلى أمريكا للدِّراسة، في منتصف كانون الأوَّل 1947م. كانت الطرق خالية إِلَّا من المصفَّحات البريطانيَّة. ورغم أجواء الحرب الَّتي تنذر بالخطر إِلَّا أنَّ الحياة كانت تسير كعادتها في القدس، يقول شرابي: أمس، كنَّا في القدس، في (أوتيل كلاريديج) بالقطمون، بعد الظُّهر ذهبنا لمشاهدة فيلم

¹ المصدر السَّابق، مقدِّمات لدراسة المجتمع العربي، ص 108.

(حبيب العمر) لفريد الأطرش وسامية جمال في سينما ركس، كانت القاعة ملأى بالمشاهدين).

ويستقلُّ شرابي الطَّائرة، ومن نافذتها يلقي النَّظرة الأخيرة على يافا وبيوتها وبحرها، ولم يدُرْ بخلده أَنَّه لن يعود إليها. وحينما يستعيد شرابي هَذَا الموقف، وهو يكتب مذكَّراته، يوجِّه النَّقد لنفسه، ومجتمعه: (أسأل نفسي الآن، كيف غادرنا بلادنا، وال الحرب قائمة فيها، واليهود يستعدُّون لابتلاعها؟ لم يكن يخطر على بالنا تأجيل دراستنا، والبقاء في وطننا؛ لنقاتل. كان هناك من يقاتل عوضاً عَنَّا.. أولئك الذين قاتلوا في ثورة 1936م والذين سيقاتلون في المستقبل.. إِنَّهُمْ فَلَاحُونَ، وليسوا بحاجة إلى التَّخصُّص في الغرب. ويضيف ساخراً بمرارة: موقعهم الطَّبيعي هنا، أَمَّا - نحن المثقَّفين - فموقعنا في مستوى آخر.. نحن نصارع على جبهة الفكر، ونقاتل قتال العقل الم libero. ويستخدم المؤلَّف أسلوبًا قصصيًّا ماتعاً، قائماً على استخدام ضمير المتكلِّم، والفعل المضارع، ووصف المشاعر، والمكان، وسرد التَّفاصيل الصَّغيرة: (أدخل غرفتي، وأغلق الباب ورائي، للمرة الأولى، منذ مغادرتي مطار اللَّد، أستطيع التَّفكير بهدوء، ها أنا أخيراً في أمريكا، تحقَّقت أحلامي، ووصلت إلى جامعة شيكاغو، وأنا الآن في غرفتي الخاصة... أحسست بالوحشة تغمرني.. قلبي يكاد ينفجر.. إِنِّي على وشك البكاء.. أريد العودة إلى وطني وأهلي، وإلى الحزب الذي تركته ورائي...)⁽¹⁾

وعبر طريقة الاسترجاع، يعود شرابي بذاكرته، إلى طفولته الأولى في يافا وعكا، فيعرِّفنا على أفراد أسرته، والده ووالدته وإخوته وجِدِّه وجِدِّته، يقول: كانت جدَّتي من عائلة أُرستقراطيَّة متديَّنة، وكانت كلَّ يوم جمعة، توزَّع الصَّدقة على الفقراء،

¹ شرابي، د. هشام، الجمر والرماد ذكريات مثقَّف عربي، منشورات ابن رشد، المكان والتَّاريخ غير موجودين، ص 9-15.

بعد صلاة الظُّهر، وكانت تدير الرَّاديو إلى أقصى علوه؛ لسماع تلاوة القرآن الكريم... وبعد خطبة الجمعة كان الفقراء يأتون بالعشرات، ويجلسون في الحديقة، فيقدم لهم الطعام...).

هذه الطبقة الاجتماعية الأرستقراطية التي عاش في وسطها هشام شرابي، حيث لم يعرف الحرمان، كانت تهتمُّ أولاً بالمكانة الاجتماعية، واسم العائلة، والكرم التَّظاهري تجاه الضَّيف. ويوجِّه انتقاده إلى هذه الطبقة بقوله: (في فترة الاحتلال اتَّخذ الشُّعور الوطَّنيُّ عند هذه الطبقة، شكل كرامة أهينت أكثر منه شكل حقِّ قوميٍّ أو حرَّيَّة دينست، فكأنَّ كرامة العائلة والحقِّ القوميِّ والحرَّيَّة أشياء متساوية. أما أنَّ الشَّعب كان يعيش حياة ذلٍّ وقهر، وتهان كرامته كلَّ يوم، فأمر لم يكن يدخل في مفهوم هذه الطبقة. من هنا لم يكن في مضمون الوعي القوميِّ الذي ترعرعنا عليه ما يربط حياتنا وعملنا بواقع شعبنا وحياته. كان الاستقلال يعني - لدى هذه الطبقة - التَّخلُّص من أجانب يحتلُّون مراكز السلطة في بلادنا، ويحرموننا من التَّمُّتع بها. أما تحرير الشَّعب والمجتمع، بمعنى أن يستعيد الإنسان إنسانيَّته، والمجتمع وحدته، وحرَّيَّته، فأمر لم يكن يدخل في تصوِّرنا أبداً..).

وفي كتاب سيرته يواصل هشام النَّقد لمفكري طبقة الأرستقراطية التي انتهى إليها، فقد كان هؤلاء المفكرون متناقضين يرون التاريخ من خلال معانٍ موقعهم الطَّبقيِّ ومصالحه. يعشقون الماضي ويجدونه، يحبُّون الغرب ويكرهونه، غرسوا في طلبتهم مرَّكَب التَّفاص من الغرب، وتقديسه، وغدت المفاهيم القومية تعصُّبَية بعيدة عن المفاهيم الاجتماعية والتَّاريخيَّة الصَّحيحة.

ويفرد الدُّكتور شرابي صفحات كثيرة، لتجاربه في بيروت أثناء دراسته، في بداية الأربعينات، سواء تلك المتعلقة بتجاربه الذَّاتيَّة، وعلاقاته مع زملائه، وعائلته

وأسرته وأصدقائه، أو تلك التجارب العامة المتعلقة ب مجريات الأحداث الوطنية والقومية، كالأزمة التي حدثت في لبنان في عهد الاستقلال، عام 1943م، حيث أغلق الفرنسيون البرلمان اللبناني بالقوة، وألقي القبض على عدد من الرُّعَماء بينهم بشارة الخوري رئيس الجمهورية، ورياض الصلح رئيس الوزارة، وتنصيب حكومة موالية لحكومة ديجول الفرنسية. ويصف شرابي مظاهر الوحدة الوطنية اللبنانية التي كانت قائمة بين الاتجاهات اللبنانية كلها والأعمال المقاومة التي قامت بها الأحزاب والجماهير ضد الاستعمار الفرنسي.

ويروي شرابي في سيرته الذاتية: (الجمر والرماد) قصصاً وحكايات طريفة، فيها ما في القصة القصيرة من عناصر: كالرَّمَان والمكان والأحداث المتشابكة والشَّخصيَّات الواقعية والحوار، المطعم بالإنجليزية أو الفرنسية تارة، وباللهجة العامية تارة أخرى، ولكنَّه ظلَّ ملتزماً باللغة العربية الفصيحة التي أحبَّها منذ طفولته. ومن هذه الشخص تلك التي جرت مع رجال المخابرات الفرنسيين والإنجليز في بيروت وبيافا، ويعقب شرابي قائلاً: (ما الفائدة من الثقافة والعلم، إذا كان الفرد يحقر في وطنه، ولا يستطيع الرَّدَّ حتى ولو بكلمة؟⁽¹⁾)

وما يميِّز هشام شرابي في سيرته الذاتية صدقه مع نفسه، وذكره لعيوبه وضعفه، وصراحته مع قارئه، وانتقاده الشَّديد للمسلمات التي يعتقد أنها هو أو غيره من المحيطين به من زملاء وعلميين ومفكِّرين، يقول: (في تلك الأيام، كان كُلُّ مَنْ يعتقد أنه (فلترة) يمتاز عن بقية الناس بذكائه وفطنته. ولم أكتشف خطئي وأدرك بأني لست (فلترة) إلَّا بعد مرور أعوام طويلة من الجهل والغرور).

¹ المصدر السَّابق الجمر والرماد ص 18-23.

كان شرابي محباً للقراءة، وجمع في نهاية دراسته الجامعية في بيروت مكتبة اشتملت على المئات من الكتب (اقتنيتها كتاباً كتاباً، ودفعت ثمن كلٍ منها بحرمان نفسي من ملذات عديدة. وضمت مكتبي معظم المؤلفات الكلاسيكية من هوميروس إلى نيتاشة..).

وتحدث شرابي مطولاً عن تجربته الّرّبّية في الحزب السّوريّ القوميّ، وعلاقته الوثيقة بزعيمه أنطون سعادة الّذّي كان مهتماً بالقضيّة الفلسطينيّة، وأعطاهما الكثير من الجهد والّتفكير.

وتداخل الأحداث وتتمازج فيعود شرابي بين الحين والآخر إلى ذكريات دراسته في رام الله، ومرابع طفولته وصباح في يافا، عكّا، فيتذكّر جدّه الّتّي تحثّه على شرب البابونج، وجدّه الّذّي فقد عقله بعد ضياع الوطن، وذكريات الصّيد والّسيّينا والشّاطئ الجميل في عكّا، ثمّ ينتقل إلى لبنان وأمريكا وشيكاغو وتلوجها وبردها، وشعوره بالغرابة والّوحشة، وتذكّر أيام نكبة عام 1948م وهزيمة حزيران عام 1967م.

لعكاً مكانة عالية في ذاكرة شرابي، إنّها بالنسبة إليه (كانت وما تزال أجمل مدينة في العالم.. فهـا أمضيت القسم الأكـبر من طفولتي، وأجمل أيام صبـاي... لقد زـرت أنحاء مختلفـة من العالم، وـشاهدت شـواطئ رـملـية عـدـيدـة، إـلـا أـنـّـي لم أـرـ شـاطـئـاً يـصـاهـيـ شـاطـئـاً عـكـاً بـجمـالـه وـرونـقهـ. الرـمـلـ فيـهـ أـبـيـضـ نـاصـعـ، وـمـيـاهـ خـلـيـجـهـ نـقـيـةـ زـرـقاءـ، وـأـمـوـاجـهـ هـادـئـةـ عـرـيـضـةـ، تـتـكـسـرـ بـرـفـقـ وـنـعـومـةـ)، ولـكـنـ، لـمـاـ كـانـ هـذـاـ الشـاطـئـ خـالـيـاـ منـ مواـطـنـينـ؟ يـجيـبـنـاـ شـرابـيـ: لـأـنـّـ أـهـلـ عـكـاـ (لـاـ يـحـبـونـ السـيـاحـةـ، وـيـفـضـلـونـ تـمـضـيـةـ فـتـرـةـ الرـاحـةـ فـيـ الـجـلـوسـ عـلـىـ الشـرـفـاتـ، أـوـ فـيـ المـقـاهـيـ، أـوـ فـيـ التـمـشـيـ سـاعـةـ الغـرـوبـ). وهـلـ كـانـ فـيـ عـكـاـ، فـيـ تـلـكـ الـأـيـامـ دـورـ لـلـسـيـئـنـاـ؟. نـعـمـ كـانـ فـيـ المـدـيـنـةـ دـارـانـ لـلـسـيـئـنـاـ،

وهما: سينما البرج، والأهلي. وماذا عن عراقة عَكَ؟ إِنَّهَا مدينة محاطة بالأسوار والتحصينات الإسلامية، والأرقة المبلطة والمسقوفة. وأين كان هذا الطفل يستريح؟. يجيب هشام: (كانت حجرتي تطلُّ على البحر مباشرة، وكان فراشي يقع بالقرب من النافذة، فكنت أغفو وأستيقظ على هدير الأمواج. في الصَّباح، كنت أتبَّئَن من صوت وقع الأمواج على الشَّاطئ الصَّخريِّ إذا كان البحر هائجاً أو هادئاً، يصلح لصيد الأسماك أو للسباحة... تلك كانت أسعد أيام حياتي بلا منازع).⁽¹⁾

دراسة شرابي في أمريكا، كانت مليئة بالتجارب الحياتية والتربيَّة، ولم يعجبه سلوك بعض الطُّلَّاب العرب غير الجادين في دراستهم وسلوكهم الذي يتَّسم بعدم الالتزام، وعدم الشُّعور بالمسؤوليَّة، مقارنة مع الطُّلَّاب الأمريكيين الذين كانوا يطالعون ويحضرون ولا يمنعهم عن الدَّرس شيء، (فلا يسمح لنفسه بالرَّاحة والترفيه، إلَّا بعد أن ينفي ما يتَّوجب عليه. وكان سلوك الطُّالب العربيِّ على عكس ذلك تماماً. كان حسِّه بالمسؤوليَّة مرتبطاً بما هو خارج عنه، بسلطة تقف فوق رأسه، لا بدافع داخليٍّ يلزمه ذاتيًّا. فإذا غابت عنه السلطة الخارجية (سلطة الأب أو الأستاذ) حلَّ محلَّها نزعة فوضويَّة تدفع به إلى التَّهرب من المسؤوليَّة، والسعَي نحو اللَّذَّة، وإذا وجد نفسه حِرَّاً عجز عن استعمال حِرَّته).

ويبني الدُّكتور هشام شرابي كتابه (الجمر والرَّماد) بمشهد السَّفر والوداع والهجرة القسرية من الوطن العربي إلى الغرب: (الطائرة تعلو رويداً.. رويداً فوق عَمَان، متَّجهة جنوبًا، البيوت تصغر حَتَّى تبدو بحجم لعب الأطفال، ثمَّ تختفي ولا تبقى إلَّا الأرض

¹ المصدر السابق، الجمر والرَّماد ص 35-93.

الخالية، والليل الجرداء، أنظر إليها من خلال دموع لا أستطيع منع انسياها. لقد
(١) نبدّتني يا وطني.. لن أرجع إليك.. لن أرجع أبداً..

السيرة الذاتية الثانية: صور الماضي:

مشهد السفر هذا إلى أمريكا الذي يتحدث عنه هشام شرابي حدث عام 1949م، إثر إعدام أنطون سعادة، والقضاء على الحزب السوري القومي الاجتماعي. ورغم أنه أمضى غالبية سنوات عمره مرغماً في أمريكا، إلا أن جذوره ظلت مغروسة في وطنه الذي عاش في أعماق قلبه. يقول شرابي في سيرته الذاتية الثانية صور الماضي: (إلى هذا اليوم، ما زلت غريباً في هذا البلد الذي قضيت فيه الجزء الأكبر من حياتي. في صباح كل يوم، في الصيف والخريف، أجلس في الشرفة المطلة على حديقتنا الصغيرة، أشم عبر الورد الذي زرعته زوجتي حسب طلبي. أغمض عيني، ويخيل إليّ أنني أتنشق عبر الورد في عكا. وعندما ألتقط ورق الزعتر الأخضر الذي زرعته من أجلي، وأفركه بين أصابع وأشم رائحته أرى نفسي في جبال لبنان عند سوق الغرب وعاليه.. وعندما تقديم لي زوجتي عنب آخر الموسم، أذكر طعم عنب رام الله الذهبي الذي كان يقدم إلينا عند عودتنا إلى مدرسة الفرنز في أول الخريف. وفي الصيف، على شاطئ البحر في فيرجينيا، يتحول كل ما يحيط بي، ماء البحر، ورمال الشاطئ والأفق البعيد والهواء المشبع برائحة البحر، إلى صور وأحاسيس تذكّري بشاطئ يافا وعكا وبيروت. الواقع الذي عشته هنا منذ أكثر من أربعين سنة ما زال عاجزاً عن امتلاكي. إنّي كالمسافر الذي يملأ الحنين قلبه، منذ اللحظة التي يغيب فيها ساحل بلاده عن ناظريه، ويعيش محكوماً بالآني والعاشر، حقائبه دائماً معدّة، ينتظر ساعة العودة).

^١ المصدر السابق، الجمر والرماد ص 126 وص 238

غير أنَّ شرابي يُقرُّ في مذَكَّراته أنَّ الغربة أفادته، من ناحية تمكُّنه من إتمام دراسته العليا، وحصوله على شهادة الدُّكتوراه بجدارة واستحقاق، ما مكَّنه من العمل أستاداً جامعياً في إحدى كبريات الجامعات الأمريكية. يقول شرابي: (كنت بين المحظوظين من المثقفين العرب الذين تمكَّنوا من الإفلات باكراً من ريق الثقافة الأبوية وأنظمتها السِّياسية، وإصدار بحوث ودراسات دون خوف من سلطة أو رقابة فكريَّة).

في سيرته صور الماضي يبدأ شرابي بالحديث عن تجربته مع المرض الخطير الذي ألم به، ويصف حالة التَّؤُّر والقلق والأرق التي كانت تعتريه ليلاً ونهاراً، لكنَّ هذا المرض لم يمنعه من التَّذَكُّر والكتابة والتَّأليف. (في هذه الغرفة البيضاء الباردة، أشعر بحنين جارف إلى زوجي، وإلى ابني ليلى... إلى بيتي، وكلِّ خاصٍ وحميم في حياتي).⁽¹⁾ ويواصل شرابي تذَكُّر طفولته في فلسطين، ويرسم صورة قلميَّة للأماكن التي عاش فيها، أيام طفولته، ولا سيَّما عَكَّا التي يعلِّق المؤلِّف صورها على حائط مكتبه، ويراهما صباح كلِّ يوم. ويتذَكَّر جَدَّه اللَّطِيف دمث الخلق، وأحاديثه معه. ويسترسل في ذكرياته الدَّافئة مع أمِّه وأبيه وإخوته وجَدَّته وصديقاتها، وأصدقاء الأسرة في فلسطين ولبنان.

ونختتم حديثنا عن المفكِّر الدُّكتور هشام شرابي، بالمقدِّمة التي كتبها الأديب حنَّا أبو حنَّا لكتاب صور الماضي، تحت عنوان: على العتبة، يقول الأديب حنَّا أبو حنَّا: (كتب هشام شرابي فصوًّلاً من سيرته الذَّاتيَّة في كتابه (الجمر والرَّماد) إلَّا أنَّ (صور الماضي) تأخذنا إلى الينبوع، إلى ربوع الطُّفولة ومسارحها. ويترافق المدى فإذا بهذه الربوع ملامح وطن راسخ في القلب والوعي والرؤيا. وإذا بالسِّيرة الذَّاتيَّة استحضار

¹ مصدر سابق، صور الماضي ص 22-33.

لهذا الوطن، وقبس لعيون الأجيال تصل حلقات السِّلسلة، وتقيم الصِّلة بين الفرع والجذر، في آفاق من إحياء النَّكهة واللَّون والنَّغم. ولذلك فإنَّ التَّفاصيل التي تروي عن مساح الطُّفولة في يافا ورام الله وعكا، تنسج وشاحاً جميلاً يرتبط فيه الخاصُّ بالعامِ، وتنقل إلينا عدوى هذَا العشق الخالد لموطن تلك الربُّوع. إنَّ هشام شرابي مسكون بالوطن، وأمواج البحر في عَكَّا لا تفِي تباري لترتبي على شواطئ قلبه. وما زالت السَّاعة في ساحة يافا تنبض بخلجاته، وعلى تماوج ذُوابات الصَّنوبر في رام الله تهُوم ذكريات وأنغام. ويجاور القارئ قلب المؤلِّف إذ يعرِّفه على أفراد عائلته وصلاته بهم، ويعرِّفه على أصدقاء الطُّفولة والصِّبا، ويصарحه بكلِّ ما كان ينزوِي في نواح من القلب لم يكشفها من قبل. ونسري مع الجداول الفكرية، ونطلُّ على ينابيع المعرفة التي كان لها دورها في صياغة رؤيا هذا المفَكِّر العالم. كتب هشام شرابي هذه السِّيرة بعفويَّة المصارحة المخلصة، التي تأسرك بدفعه التَّوجُّه، ويسر المكاشفة، ووظيفيَّة الأسلوب، وما ينطلق عن القلب ينفذ إلى القلب). صور الماضي المقدِّمة.

المراجع والمصادر:

- 1- أبو نضال، نزيه، القلقيلي، عبدالفتاح. **الكافش معجم كتاب وأدباء فلسطين** نـ_ي. ط1. رام الله: المجلس الأعلى للثـرية والثقـافة-منـظمة التـحرير الفلـسطـينـية، 2011م.
- 2- الجـيـومـيـ، سـلـمـيـ. **موسـوعـةـ الأـدـبـ الـفـلـسـطـينـيـ المـعاـصـرـ 2ـ التـرـ**. بيـرـوـتـ: المؤـسـسـةـ العـرـبـيـةـ لـلـدـرـاسـاتـ وـالـنـشـرـ، 1997ـمـ.
- 3- شـرـابـيـ، هـشـامـ. **الـجـمـرـ وـالـرـمـادـ ذـكـرـيـاتـ مـثـقـفـ عـرـبـيـ**. دـ.مـ: منـشـورـاتـ اـبـنـ رـشـدـ، دـ.تـ.
- 4- شـرـابـيـ، هـشـامـ. **الـمـثـقـفـونـ الـعـرـبـ وـالـغـرـبـ**. بيـرـوـتـ: دـارـ الـهـمـارـ لـلـنـشـرـ، 1978ـمـ.
- 5- شـرـابـيـ، هـشـامـ. **الـنـظـامـ الـأـبـوـيـ وـإـسـكـالـيـةـ تـخـلـفـ الـمـجـتمـعـ الـعـرـبـيـ**. عـمـانـ- الـأـرـدـنـ: وزـارـةـ الـثـقـافـةـ، 2009ـمـ.
- 6- شـرـابـيـ، هـشـامـ. **صـورـ الـمـاضـيـ سـيـرـةـ ذـاتـيـةـ**. النـاـصـرـةـ: منـشـورـاتـ الصـنـنـارـةـ، 1994ـمـ.